جدلية الانتماء والضياع صراع الهوية بين الغربة والحنين في الشعر الجاهلي في ارض العجم

المدرس الدكتورة دعاء علي عبد الحسين

قسم اللغة العربية، كلية التربية، الجامعة المستنصرية

doaaali@uomustansiriyah.edu.iq

الكلمات المفتاحية: ارض العجم ، الجاهلي ، الغربة ، الحنين

كيفية اقتباس البحث

عبد الحسين ، دعاء علي ، جدلية الانتماء والضياع صراع الهوية بين الغربة والحنين في الشعر الجاهلي في ارض العجم،مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، آيار ٢٠٢٦، المجلد:١٦، العدد:٥

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

The Dialectic of Belonging and Loss
The Identity Struggle Between Alienation and Nostalgia in Pre-Islamic Poetry in Persia

Lect. Dr. Doaa Ali Abdulhussein
Department of Arabic Language, College of Education, Al-Mustansiriya University
doaaali@uomustansiriyah.edu.iq

Keywords : Land of the Persians, pre-Islamic times, alienation, longing

How To Cite This Article
Abdulhussein ، Doaa Ali ، The Dialectic of Belonging and Loss ،The Identity Struggle Between Alienation and Nostalgia in Pre-Islamic Poetry in Persia ,Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, May 2026,Volume:16,Issue 5.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract:

This study explores the dialectic of identity, alienation, and nostalgia in pre-Islamic poetry within Persia (the land of non-Arabs). It asserts that geographical migration was not merely a physical relocation but rather a profound existential alienation that touches the very core of human existence. The study examines the texts of this pre-Islamic diaspora poetry as cultural and historical documents that chronicle the psychological conflict between the authentic Arab self and the non-Arab self. Through an analysis of themes of nostalgia, loss, the tragedy of death in exile, and the stark contradiction between idealized chivalric values and the reality of betrayal, the research clarifies how the experience of spatial and cultural alienation transformed into a catalyst for poetic creativity. Poetry thus became a defensive tool for asserting the self, reviving identity, and rejecting assimilation into a foreign space. I

adopted an inductive and analytical approach to exploring specific themes (such as longing, loss, and the tragedy of death in exile), deciphering the codes of literary structure, and employing textual analysis mechanisms (contrasting binaries). I utilized these mechanisms to deconstruct the structure of consciousness in the pre-Islamic poet, focusing particularly on the strategy of contrasting binaries such as freedom and restrictions, sovereignty and domination, and the pre-Islamic ideal of chivalry versus the reality of betrayal, to unleash the tragic charge and highlight the stark contradiction experienced by the self. The research attempted to extrapolate cultural interaction, and to deconstruct the literary structure by deciphering the codes of the literary structure resulting from cultural contact, and to monitor the effect of alienation and the literary repercussions resulting from this contact, and to investigate the effect of the alienation experience in shaping the pre-Islamic poetic text outside the geographical scope of the Arabian Peninsula.

المستخلص:

تبحث هذه الدراسة في جدلية الهوية، والغربة، والحنين في الشعر الجاهلي داخل (أرض العجم)، وتؤكد أن الارتحال الجغرافي لم يكن مجرد انتقال مادي بل مثل اغتراباً وجودياً عميقاً يمس صميم الكينونة الإنسانية. كما تقارب نصوص هذا الشعر المهجري الجاهلي بوصفها وثائق ثقافية وتاريخية ترصد الصراع النفسي بين الذات العربية الأصيلة والأعجمي، ومن خلال استقراء ثيمات الحنين، والضياع وفجيعة الموت في المنفى، والتناقض الصارخ بين قيم الفروسية المثالية وواقع الخذلان ، يوضح البحث كيف تحولت تجربة الاستلاب المكاني والثقافي إلى حافز للإبداع الشعري؛ لتغدو القصيدة أداة دفاعية لإثبات الذات، واستنهاض الهوية، ورفض الذوبان في فضاء. حاول البحث استقراء التفاعل الثقافي، وتفكيك البنية الأدبية من خلال تفكيك شفرات البنية الأدبية الناتجة عن الاحتكاك الحضاري ورصد أثر الاغتراب وما احدثه من انعكاسات أدبية نتيجة لهذا التماس، وتقصي أثر تجربة الاغتراب في تشكيل النص الشعري الجاهلي خارج النطاق الجغرافي للجزيرة العربية. اعتمدت المنهج الاستقرائي والتحليلي في استقراء ثيمات محددة (مثل: الحنين، والضياع، وفجيعة الموت في المنفى) وتفكيك شفرات البنية الأدبية وتوظيف آليات التحليل النصي (الثنائيات المتقابلة) فقد استثمرت آليات التحليل النصي لتفكيك بنية الوعي لدى الشاعر الجاهلي، وركزت بشكل خاص على استراتيجية الثنائيات المتقابلة مثل: (الحرية والقيود،

السيادة والهيمنة، والمثال الجاهلي للفروسية مقابل واقع الخذلان) لتفجير الشحنة المأساوية وإبراز التناقض الصارخ الذي تعيشه الذات

المقدمة :

نبحث في هذا المضمار عن (شعر المهجر الجاهلي) فلا نبحث عن ابيات قيلت وراء الحدود بل في شعر جزء لا يتجزأ من التراث الشعري الجاهلي وظل يحمل ظروف وخصوصية نفسية وتاريخية مرتبطة بالنظم والبيئة التي قيلت فيه

تخلص هذه الدراسة إلى إثبات جملة من القضايا المحورية في تاريخ الأدب العربي القديم، يتصدرها تجاوز الإبداع العربي لحيز البيئة الصحراوية الضيق، وانفتاحه على فضاءات أرحب تتمثل في (أرض العجم)؛ وهو مصطلح يحمل أبعاداً جغرافية وسياسية مركبة. وتأسيساً على ذلك، لا تقارب النصوص في هذا السياق بوصفها محض تدفق وجداني وذاتي، بل تعد وثائق ثقافية وتاريخية ترصد تحولات الوعي العربي إبان تماسه المباشر مع الأعجمي. ومن هنا، ينبثق الهدف الرئيس لاختيار موضوع هذا البحث والمتمثل في استقراء تمثلات هذا التفاعل الثقافي بين الذات العربية والآخر، وتفكيك شفرات البنية الأدبية المتمخضة عن هذا الاحتكاك الحضاري وعليه، يسعى البحث إلى رصد الانعكاسات الأدبية لهذا التماس متقصياً أثر تجربة الاغتراب في تشكيل النص الشعري الجاهلي خارج النطاق الجغرافي للجزيرة العربية. **مصادر الدراسة:**

اعتمدت في الدراسة على الرسالة الجامعية تحت عنوان (الشعر الجاهلي في أرض العجم) للباحث ناصر بن أحمد الطميزي حيث أعاد تشكيل خارطة الأدب العربي القديم متجاوزاً حدود شبه الجزيرة العربية المألوفة بأسلوب سردي وتحليلي رصين، يغوص الكاتب في أعماق التاريخ، متتبعاً خطى الشعراء الجاهليين الذين قادتهم ظروف الأسر، أو الاغتراب، أو الوافدات السياسية والتجارية، إلى بلاطات كسرى في بلاد الفرس، وقياصرة الروم، ونجاشي الحبشة.

ينسج الباحث عمله من خلال شقين متكاملين؛ يبدأ أولهما بتمهيد جغرافي وتاريخي يستعرض طبيعة الاتصال بين العرب والأمم المجاورة، ثم ينتقل في سرد ماتع لرصد أماكن نظم القصائد في تلك الديار الغريبة، مصنفاً الشعراء وموضوعاتهم التي تأرجحت بين الحنين الجارف للوطن، ووصف الحضارات الجديدة، أو شكوى الأسر ويحلل ببراعة كيف انعكست تجربة الاغتراب والاحتكاك الثقافي العرقي على روح القصيدة ولغتها، وموسيقاها، وتشكيلها الفني وصورها الشعرية.

أما الشق الثاني من الكتاب، فيمثل كنزاً وثائقياً وتطبيقياً، تفرغ فيه الباحث لجمع شتات هذا التراث الشعري المتناثر والمنسي في بطون المراجع والأمهات القديمة، محققاً وموثقاً إياه بدقة، وتتجلى القيمة الحقيقية لهذا الكتاب في كونه ليس مجرد تجميع جامد للنصوص، بل هو سردية حية تنبض بمعاناة الشاعر العربي الممزق بين حنينه لرمال الصحراء وخيام قبيلته، وبين دهشته او غربته أمام بهرج الحضارات الأخرى، مما يجعله وثيقة أدبية وتاريخية تسد ثغرة هامة في فهمنا لأبعاد الشعر الجاهلي الإنسانية والجغرافية الأرحب.

أهمية الدراسة: تكمن أهمية هذه الدراسة بناءً على ما ورد في البحث في عدة جوانب أدبية وتاريخية محورية واهمها: تجاوز النطاق الجغرافي المألوف حيث إثبات أن الإبداع الأدبي العربي القديم قد تجاوز حيز البيئة الصحراوية الضيق وانفتح على فضاءات أرحب متمثلة في (أرض العجم). وتوثيق التفاعل الحضاري من خلال تقارب الدراسة نصوص الشعر المهجري الجاهلي بوصفها وثائق ثقافية وتاريخية ترصد تحولات الوعي العربي إبان تماسه المباشر مع الأعجمي، والصراع النفسي بين الذات العربية الأصيلة والآخر.

هدف البحث: حاول البحث استقراء التفاعل الثقافي، وتفكيك البنية الأدبية من خلال تفكيك شفرات البنية الأدبية الناتجة عن الاحتكاك الحضاري ورصد أثر الاغتراب وما احدثه من انعكاسات أدبية نتيجة لهذا التماس، وتقصي أثر تجربة الاغتراب في تشكيل النص الشعري الجاهلي خارج النطاق الجغرافي للجزيرة العربية.

منهجية الدراسة: اعتمدت المنهج الاستقرائي والتحليلي في استقراء ثيمات محددة (مثل: الحنين، والضياع، وفجيعة الموت في المنفى) وتفكيك شفرات البنية الأدبية وتوظيف آليات التحليل النصي (الثنائيات المتقابلة) فقد استثمرت آليات التحليل النصي لتفكيك بنية الوعي لدى الشاعر الجاهلي، وركزت بشكل خاص على استراتيجية الثنائيات المتقابلة مثل: (الحرية والقيود، السيادة والهيمنة، والمثال الجاهلي للفروسية مقابل واقع الخذلان) لتفجير الشحنة المأساوية وإبراز التناقض الصارخ الذي تعيشه الذات

البحث

تنهض هذه الدراسة على مقاربات تأسيسية، يتصدرها البعدان الزمكاني والذاتي؛ نظراً لفاعليتهما المركزية في تشكيل تجربة الحنين والشكوى بفعل الاغتراب. فالزمان والمكان في الوجدان العربي لم يكونا قط أطراً مادية أو حدوداً صامتة، بل مثلا المحفز المضمر الذي يحرك قريحة الشاعر

ما قبل الإسلام، ويستفز ذاكرته لإنتاج الصورة الشعرية وتدفقها وفي هذا السياق، تجلت ظاهرة الذات الضائعة في المنجز الشعري الجاهلي عبر تجليات شتى، كان المكان فيها حاضراً بقوة بوصفه فضاء تعكس عليه الذات صراعاتها الأزلية ومن هنا، لم يكن الشعر في ارض العجم محض ارتحال جسدي أو مسافة جغرافية، بل تجسد بوصفه اغتراباً وجودياً يمس صميم الكينونة الإنسانية وجوهرها. يقول البراء بن روحان التغلبي في ارض العجم (الطميزي ، ٢٠١٠ م ، ص ٤٣٠) و (ينظر اليسوعي ، ص١٤٧):

بكيتُ لِغَرْسَـــانِ وَحَـــقَّ لِنَاظِـــــرِي	بكاء قَتِيلِ الْفرْسِ إِذْ كَـــانَ نَائيَا
بكيتُ عَلَى وَارِي الزَّنَادِ فَتَى الْوَغَى الس	ريع إِلَـــى الْهَيْجَاء إِنْ كَانَ عَادِيَا
إِذَا مَـــا عَـــلَا نَهْدًا وَعَرَّضَ ذَابِـــلًا	وَقَحَمَ بَكْـــــرِيًّا وَهَـــزَ يَمَانِـــيَا
فَأَصْبَـــحَ مغتالا بِـــأَرْضٍ قَبِـــيحَةٍ	علَيْها فَتَى كَالسَّيْفِ فَاتَ الْمُجَارِيَا
وَقَدْ أَصْبَحَ الْبَرَّاقُ فِـــــي دَارِ غُرْبَةٍ	وَفَارَقَ إِخْـــوَانًا لَـــهُ وَمَـــوَالِيَا
حليف نَوَىً طَاوِيْ حَشَاً سَـــافِحٌ دَمـــاً	يُرجـــعُ عَبْرَاتٍ يَهجَنَ الْبَـوَاكِياْ
فَمَن مُبْلِـــغٌ عَـــنِّيْ كَرِيمَةَ أُمَّـــهُ	لتندُبَ غَرْسَـــــانًا وَبَرَّاقَ ثَانِيَاْ

تكتسب دراسة دلالات الموت، حين تقترن بمأساة الغربة، أهمية استراتيجية في تفكيك بنية الوعي لدى الشاعر الجاهلي، فالموت بعيداً عن ديار الأهل لا يمثل مجرد توقف بيولوجي للحياة، بل يُعد انكساراً حاداً للهوية ومحنة في حيز مكاني موحش يفتقر إلى سند القبيلة وعزوتها التي تخفف من وطأة الفقد واللوعة. ولتعميق هذا الإحساس، وظف الشاعر دلالة البعد المكانية عبر لفظة (نائيا) ، مؤسساً علاقة عضوية بين مسافة الاغتراب وحرقة البكاء؛ وهو ما تجلى بوضوح في تكرار مشتقات البكاء أربع مرات في النص (بكيت، بكاء ، بكيت، بواكيا) لتأكيد فداحة الخسارة وان "خصيصة التكرار في الشعر العربي القديم تؤدي وظيفة إيضاح وإبانة المعنى وتحقيق التوازي"(ناوري ،٢٠٠٦، ص٥٧)، إن الدموع المنسكبة في هذا السياق لا تقتصر على رثاء الروح المفقودة، بل تتجاوزها لتبكي وحشة الديار والمسافة القاسية الفاصلة بين الجسد المجندل في العراء وموطنه الأصلي ، فهنا يتحول (المكان) من مجرد حيز جغرافي محايد إلى عنصر فاعل ومؤثر في الكينونة البشرية؛ إذ تعيد الذات الشاعرة تشكيل هذا الفضاء الغريب ليغدو مكاناً معادياً _ ارض العجم _، وجعله شريكاً متواطئاً في الاغتيال ومسرحاً للجريمة .وفي ذروة التلاحم بين الحزن والاغتراب، يرتقي النص ليصور الحالة الجسدية والنفسية للفارس الشاعر (البراق) الذي اجتمع عليه الم الفقد ومرارة المنفى. وتتجلى هذه الحالة الدقيقة في قوله: (حليف نوى طاوي حشا سافحاً نما)، حيث تتضافر صورة الجسد المنهك والجراح النازفة إثر طعنات

الغدر، مع النزيف العاطفي المتمثل في انهمار الدموع (يُرْجَعُ عَبْرَاتٍ يُهجن البواكيا)، في مشهد مأساوي مكثف يجسد ما يشبه لحظات الاحتضار المادي والروحي معا. في نهاية النص وجه الشاعر بوصلة الألم نحو فعل (الندب)، رافضاً الانطواء في حزنه الفردي، ليشرك معه (كريمة امه) وتكتسب صورة (الأم) في هذا الموضع بعداً سيمائيا عميقاً؛ فهي الرمز الأزلي للأصل، والجذور، والوطن ومن خلال دعوتها لندب المفقودين (غَرْسَاناً وَبَرَّاقَ ثَانِيا) في ذلك الفضاء النائي ، تحاول الذات الشاعرة استحضار الوطن في قلب المنفى _ارض العجم_ ، وتوزيع عبء الفجيعة الثقيل بين الأهل المفقودين والرفاق الثكالى، في محاولة أخيرة لترميم الانكسار الوجودي.

وتجلت ظاهرة الوقوف على الأطلال ومحاولة استنطاق جماد المكان في ارض العجم، كما في قول امرئ القيس (الطميزي، ٢٠١٠ م، ص١٥٤):

سَما لَكَ شَوقٌ بَعدَما كانَ أَقصَرا	**وَحَلَّت سُـــلَيمى بَطــنَ قَوٍّ فَعَرعَرا**
كِنانِيَّةٌ بانَت وَفي الصَدرِ وُدُّها	**مُجاوِرَةٌ غَسّانَ وَالحَيُّ يَـــــــعمُرا**
بِعَينَيَّ ظَعنُ الحَيِّ لَمّا تَحَمَّلوا	**لَدى جانِبِ الأَفلاجِ مِن جَنبِ تَيمَراْ**
فَشَبَّهتُهُم في الآلِ لَمّا تَكَمَّشوا	**حَدائِقَ دومٍ أَو سَـفيناً مُقَـــــيَّرا**

في تجسيد حي الجدلية الانتماء والضياع، خط الشاعر مسارات اغترابه بدقة ليعكس التمزق الوجداني للإنسان الجاهلي حين ينتزع من جذوره وتتيه هويته بعيداً عن ديار الأهل وقد تبلورت قسوة هذا التيه المكاني وما يفرضه من استلاب نفسي على الذات المتلهفة للعودة في قوله: (سما لك شوق). ولتأكيد واقعية هذه الفجيعة ونفي شبهة التخييل، لجأ الشاعر إلى استحضار أسماء مواطن انتمائه الأصلية (بطن قو، وعرعر) كأوتاد يثبت بها هويته الضائعة، محولاً النص إلى وثيقة جغرافية تؤكد أن الاستلاب الروحي الناجم عن فقدان الانتماء هو حصار وجودي محكم لا فكاك منه. " ان اغتراب الانسان الجاهلي .. يوحي ايحاء اقرب إلى اليقين بإحساسهم الشديد بفجيعة الغربة "(حشروم ،١٩٨٢،ص ٣٢) وقد استعاض الشاعر عن مألوف بيئته الصحراوية ببناء مشهدية مكانية مغايرة ليبث من خلالها لواعج حزنه؛ إذ لجأ إلى استعارة عناصر من بيئة "أرض العجم" متجاوزاً إطاره الجغرافي عبر تشبيه الإبل بالسفن. هذا الانزياح التصويري لا يعكس مجرد تأثر مكاني عابر، بل يجسد حالة عميقة من تشتت الهوية والتشظي، حيث تتأرجح الذات الشاعرة بين جذور الانتماء القبلي ووحشة اللانتماء.

يقول أبي بن زيد العبادي عندما طال سجن عديّ كتب إلى أخيه أبي وهو مع كسرى .. فكتب إليه أخوه يقول (الطبري ،١٩٦٨م، ص١٩٥_١٩٦.):

إن يكنْ قد خانك الزمانُ، فلا عا	جـز باعٍ ولا ألـــفٌ ضعـــيفُ
ويـــــمين الإله. . لـــو أن جأواْ	ءَ طحوناً تضيء فيها الســـيوفُ
ذات رز، مجتابة غـــمرة المـو	ت، صـــحيح ســـربالها مكفوف
كنت ي حميها – لجئتك أسعى	فاعلمن، لو سمعت، إذ تستضيف
أو بمال ســـئلت دونك لـم يم	نع تـــــلاد لحاجـــــة أو طـريف
أو بـأرض أسطيع آتيك فـيها	لـــــم يهلني بـعد بها أو مـخوف
إن تفتني والله إلفاً فـــــجوعاً	لا يعقبك ما يصوب الخـــــــريف
في الأعادي، وأنت منـي بعيد	عـــز هذا الـــــــزمان والتعنيف
ولعـــمري لئـن جزعـت عليه	لجزوع على الصـــــديق أسـوف
ولعـمري لئـــن ملكـت عزائي	لقليل شـــــــرواك فيـما أطوف

في هذا النص، لا يقف الشاعر عند حدود التوجع الذاتي المألوف، بل يرتقي بشكواه ليجعل من "الزمن" خصماً وجودياً وقوة باطشة تسعى لتفكيك أواصر الأخوة. فمن خلال استعارته العميقة في قوله "خانك" الزمان"، يجسد الشاعر قسوة هذا الخصم، محيلاً إياه إلى كيان خائن يمارس سطوته على الذات الإنسانية. هذه الشكوى الزمانية تأتي لتبرئ ساحة أخيه الأسير من أي وهن أو تخاذل؛ فهو ليس بـ "عاجز باع ولا ألف ضعيف"، لتؤكد أن هذه المأساة لم تكن يوماً نتاج تقصير شخصي، بل هي ضريبة حتمية لغدر الأيام وقسوتها وتتعمق المأساة حين يصطدم الشاعر بالعجز الفعلي عن مساندة أخيه، مما يولد في داخله فجيعة نفسية مركبة ، فيجد الشاعر متنفساً لحزنه عبر توظيف دلالة "الخريف ؛ فرغم أن الخريف يمثل في الذاكرة العربية بشارة الغيث والخير، إلا أن شسوع المسافات وتغيير البيئة وظروف الأسر بدلت الدلالة جذريا ، جاعلة من ذات الشاعر محطة مقفرة تبث الشكوى والحزن من بيئة اغترابيه قاسية تتنكر للمألوف العربي

وفي ذروة النزف الوجداني، تتصدر الأداة " لو" المشهد، لتشكل عقدة درامية تبرز حجم التحسر على الفرص الضائعة. يطرح الشاعر عبر هذه الأداة سلسلة من الافتراضات المستحيلة لو تطلب الأمر جيشا جراراً، أو لو سئل فدية من مال، أو لو كانت المعركة في أرض بعيدة يمكن بلوغها من خلال هذا السرد الافتراضي، يقف الشاعر وكأنه يمثل أمام محكمة وجدانية قاسية، لا ليستعرض حزنه وعجزه فحسب، بل ليستميت في الدفاع عن وفائه الأصيل، كاشفاً عن جرح غائر وروح تتوق لإنقاذ أخيها مهما كلف الثمن. وفي موضع أخرى نرى جانب اخر من القيادات العربية في ارض العجم حيث " ان اول من انصرف إلى كسرى بالهزيمة إياس بن قبيصة ، وكان لا يأته أحد بهزيمة جيش إلانزع كتفيه" (الاصفهاني ،٢٠٠٨م ، ص٤٤) فقال

عند هروبه يصف نجاته وهو يحث فرسه على الإسراع(الطميزي ، ٢٠١٠ م ، ص٣٥٧_٣٥٨):

ما ولـدتنـي حاصـن ربعـية	**لَئِن أَنَا مَاْلَأْتُ الهَوى لاتباعها**
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الأَرْضَ رَحْبٌ فَسِيحَةً	**فَهَل تُعجِزَنِي بُقْعَةً مِن بِقاعِها**
وَمَبْثُوثَةٍ بَـــنَّ الدبا مُسْبَطِرَّةٍ	**رَدَدتُ عَلَى بِطَائِهَا مِن سِرَاعِها**
وَأَقْدَمــتُ وَالخَطِيُّ يَخطِرُ بَيْنَنَا	**لأَعْلَمَ مَن جَبَاْنُها مِنْ شُجاْعِهاْ**

يشكل ثالوث (القلق، والحزن، والاغتراب) ركيزة جوهرية في الوجدان الشعري الجاهلي خارج حدود الجزيرة العربية _ ارض العجم _ فهذه المكابدة لم تكن محض انفعال عابر، بل تجسيداً لرؤية فلسفية عميقة تتقاطع فيها مأساة الذات مع الذاكرة الجمعية، لتضرب بجذورها في أعماق الروح العربية المغتربة ، وفي خضم هذا المأزق الوجودي، يتخذ الشاعر من النسب طوق نجاة ومرتكزاً ثابتاً في مطلع نصه؛ ليؤكد أن انسلاخه الجغرافي عن مكانه لم يزعزع ارتباطه الوثيق بأصوله وانتمائه العربي الأصيل " إن سلوك الجاهلي الصريح وشعوره يرتبطان ارتباطاً كبيراً بنسبه الابوي، فقومه جبال يأوي إليها"(اسليم ، ١٩٩٨، ص٣٢)

لم يعد المكان في التجربة الجاهلية مجرد حيز جغرافي صامت، بل تحول إلى مسرح نفسي وقيمي تتصارع فيه هويات ممزقة بين ثنائيات قاسية كـ (الحرية والقيود) ، و (السيادة والهيمنة)، و (الاختيار والقسر) وفي خضم هذا الصراع يتجلى الاغتراب كحالة وجودية قاهرة تعصف بكينونة الإنسان، متجاوزاً كونه مفهوماً أدبياً ليصبح نزعة متجذرة تعكس ضياع الذات ، وإنه تجسيد لمعاناة نفسية عميقة تتفجر حين تصطدم الروح بواقعها المرير، لتشع هذه المكابدة الداخلية نحو الخارج معلنة عن أزمة هوية وانتماء ، فيقول امرؤ القيس(الطميزي ، ٢٠١٠ م ، ص ٣٦٠):

أجـــارتنا إنَّ الــمزار قـريب	**وإنِّي مقيم ما أَقَــام عَسِيبُ**
أَجارتنا إنَّا غـــريبان هَـاهُنا	**وَكُل غريب للغريب نســـيب**
فـــإن تَصِلِينَا فَـالقَرَابَة بيننا	**وإنْ تَصْرِمِينَا فَالغَرِيب غريب**
أجارتنا ما فـاتَ لَيْسَ يَؤُوبُ	**ومَا هُوَ آتٍ فِي الزَّمَانِ قَرِيبُ**
وليس غريباً من تناءت دياره	**ولكن مَنْ وارى التَّرابُ غَرِيبٌ**

تبرز الابيات ثنائية الضياع والانتماء التي فرضتها ظروف الاغتراب على امرئ القيس؛ إذ تحولت معاناته النفسية إلى بنية نصية تفرغ شحنات الحزن بشكل مباشر، لقد مثل بكاؤه على

غربته إعلاناً عن حالة التيه وفقدان الوطن، بينما جاء تكراره لنداء (جارتنا) ثلاث مرات بمثابة بحث دلالي عن الانتماء؛ حيث يتحدث مع الآخر المجاور له جغرافياً ليؤسس معه قرابة مبنية على وحدة الاغتراب، تعويضاً عن جذوره المفقودة وهو هنا ينادي" قبر لإحدى بنات قياصرة الروم في انقرة ، وكان قد كسي الحلة المسمومة"(الطميزي ، ٢٠١٠ م ،ص ٣٥٩) تبرز القصيدة ثنائية الضياع والانتماء التي فرضتها ظروف الاغتراب على امرئ القيس؛ إذ تحولت معاناته النفسية إلى بنية نصية تفرغ شحنات الحزن بشكل مباشر. لقد مثل بكاؤه على غربته إعلاناً عن حالة التيه وفقدان الوطن، بينما جاء تكراره لنداء (جارتنا) ثلاث مرات بمثابة بحث دلالي عن الانتماء؛ حيث يتحدث مع الآخر المجاور له جغرافياً ليؤسس معه قرابة مبنية على وحدة الاغتراب، تعويضاً عن جذوره المفقودة." " يبدأ الشعور بالغربة حين يغادر الانسان مسقط رأسه أو مواطنه "(العيفاوي ، ٢٠٠١، ص٤٨) ولترسيخ مأساة المنفى، طغت لفظة (غريب) على النص مترددة في تراكيب مختلفة سبع مرات لتعضد الإحساس بالوحشة. هذا التشابك العميق في غربة الروح جعل من الحنين المتناثر بين الأمكنة جسراً عاطفياً، لعله يواسي قلب الشاعر ويخفف من قسوة الضياع وبطش القدر. وقد برزت سطوة المكان القاهرة على مصير الإنسان عبر محطات ثلاث تعكس هذه الفجيعة: ثبات جبل (عسيب)، بعد (الديار)، ومال (التراب). قال البراء بن قيس في ارض العجم (الطميزي،٢٠١٠م، ص٤٢٩) و(وينظر: البغدادي، ١٩٧٧م، ص٥٧):

يــا دار حذفة باللوى فالمـجدل	**فجنوب أسنمة فقف العنصل**
بل لا يغرك من حليل صـــالح	**إن لــم يلاقك بعد عام الأول**
كانت إذا غضبت علي تظلمت،	**وإذا كـــرهت كلامها لم تثقل**
وإذا رأتْ لي جنة عملت لــها،	**ومتى تعن بعلم شيء تـسأل**

من المؤشرات على الغربة الداخلية هي " الانسحاب أو الهروب من الواقع الذي يسبب الاغتراب"(بركات، ٢٠٠٦م، ص٦٣) في سياق الفقد والاغتراب، يتجاوز النص الشعري كونه مجرد سرد جغرافي لأماكن تواجد زوجته (حذفة) مثل: اللوى، المجدل، أسنمة، وقف العنصل – ليتحول إلى بنية سوسيولوجية تعكس أقصى درجات العزلة. إن هذا الوقوف المتخيل على الديار لا يقتصر على استحضار ذكريات الماضي، بل يمثل محاولة لترميم ذات ممزقة من خلال ترسيخ تلك الأمكنة في الوجدان لمواجهة قسوة الغياب والتلاشي؛ وهو ما تجلى بوضوح في استنطاقه للمكان عبر أسلوب النداء في قوله يا (دار) " فأسلوب النداء واهميته في العملية التخاطبية التواصلية"(تريكي ،٢٠٠٧،ص١٣٨) ليستنطق منازلهم القديمة، حيث تتداخل في

منفاه مرارة الغربة مع حلاوة الذكريات السعيدة والحنين الجارف إليها وفي هذا السياق، يتخذ الشاعر من الأطلال وصورة المرأة محوراً أساسياً يبث عبره شكواه للأرض، مبرزاً الإسهام العميق لزوجته في تشكيل حياته من خلال توظيف أفعال دالة على التفاعل مثل: (تظلمت تثقل، تسأل) وبهذا الاستحضار، يعيد إحياء طيفها لتكون الشريكة التي تسد رمق الجوع العاطفي الذي فرضته عليه قسوة البعد والاغتراب المكاني "ان الوقوف على الاطلال رمز للضياع و الاغتراب"(احمد، الفاتح ،٢٠٢٣م، ص٢٦٧) يقول البراق بن روحان التغلبي(الطميزي،٢٠١٠ م، ص٤٣١):

تَــوَلَّتْ رِجَـــالِي بِالْغَنَــائِمِ وَالْغِنَى	مُزَجينَ لِلْأَجْمَالِ مِـــنْ رَمَلَانِ
وَنَادَوْا نِـــدَاء بِالرَّحِيـــلِ فَلَمْ أَطِقْ	ايَابًا وَصِنْوِي فِـي الْمَعَارِكِ فَانِ
أَؤوبُ إِلَى أُمِـــي سَلِيما مُكَـــرَّمَا	وَغَرْسَانُ مَقْتُولُ بِدَارِ هَـــوَانِ
أَأَتْرُكُ مَنْ لَا يَتْرُكُ الدَّهْـــرَ طَاعَتِي	مُلَبٍّ لِمَا ادْعُـــو بِكُلِّ لِسَانِ
أَخِي وَمُعِينِي فِي الْخُطُوبِ وَصَاحِبِي	بِكُـــلِّ إِغَـــارَاتِي بِحَـــدِ سَـــنَانِ
فَلَمَّا دَعَانِي يَا ابْنَ رَوْحَانَ لَـــمْ أَخِمْ	وَقَوَّمْتُ عَسَّالِي وَصَدْرَ حِصَانِي
طَعَنْتُ بِنَصْلِ الرُّمْحِ جَبـــهَةَ مَـالِكِ	وغيبـته فِيـــهِ بِغَيْرِ تَـــوَانِ
وجـندَلْتُ عَمَّارًا بِضَـــرْبَةِ صَـــارِمِ	وَمَزَّقْتُ شَـــمَلَ الْجُنْدِ بِالْخَوْلَانِ

تدور الابيات حول "ان البراق أحب ابنته عمه ليلى بنت لكيز _ ليلى العفيفة_ ولكن عمه منعه إياها وعندما اسرت ليلى من قبل الفرس خاض البراق عدة حروب لتخليصها ، وفي إحدى الوقعات مع الفرس قُتلَ اخوهُ غرسان فرحل عنه قومه وبقي البراق وحيداً ثم حمل جسم أخيه وغسله من الدم والتراب ، وفرش فرشاً له من ديباج ثم انعطف عليه وقبله وقال الابيات السابقة"(ينظر: اليسوعي ، ص١٤٦) عاش الشاعر الجاهلي صراعاً وجودياً مريراً مع حتمية الفناء؛ إذ لم يكن الحزن لديه مجرد انفعال عابر ، بل رؤية فلسفية ترتبط جذرياً بالموت ومنذ مطلع القصيدة، يضعنا النص امام ثالوث معقد (الموت، الخذلان الغربة) ، مفجراً مفارقة قاسية؛ فبينما يعود رجاله بـ(الغنائم والغنى) وهو ما يمثل ذروة الانتصار المادي في العرف الجاهلي، تتهاوى قيمة هذا الانتصار أمام فجيعة فقد الأخ في(دار هوان) أو ارض العجم وأمام هذا العجز والذهول، يجد الشاعر نفسه محاصراً بغربتين غربة المكان، وغربة الروح بفقد السند ، وللخلاص من هذا العجز يتحول الانتقام إلى آلية دفاعية ونوع من الاستشفاء النفسي لامتصاص لوعة الحزن؛ ففي قوله (طَعَنْتُ بِنَصلِ الرُّمْح)، ينتقل الشاعر من حالة الانكسار إلى الفعل العنيف وعبر تتابع الصور الحركية الدالة على الاقتصاص الطعن الجندلة _ التمزيق_ ، يحاول الشاعر قهر وحشته وتفريغ شحنات غضبه، لا ليثأر من القتلة فحسب، بل وكانه يثار من الموت ذاته.

قال حجر بن خالد يتشوق إلى امرأة كلبية _ من قبيلة كلب _ واصفاً حبهُ لها، ومقدماً إليها جملة من الوصايا وهو محبوس في بلاد فارس"(الطميزي ،٢٠١٠ م، ص ٤٣٨_٤٣٩):

كلبية علـق الفؤاد بذكـــرهـا ... ما إن تزال ترى لها أهـــوالاً
فاقني حياءك لا أبا لك إنـني ... في أرض فارس موثق أحوالا
وإذا هلكت فلا تريدي عاجزاً ... غســـــاً ولا برماً ولا مـعزالا
واستبدلي ختناً لأهلك مثلـــه ... يعطي الجزيل ويقتل الأبطالا
غير الجدير بأن تكون لقوحه ... رباً عليه ولا الفصيل عـيالا

تتخذ الأبيات من ثيمات (الحنين، والأسر، والاغتراب، والوداع) محاور مركزية لبنائها الدلالي، متجاوزة بذلك نطاق البوح العابر أو الزفرات اليائسة لأسير مكبل، لترتقي إلى مصاف الوثيقة الوجودية التي توثق صراع الذات الشاعرة مع قسوة الظروف القاهرة وينسج الشاعر نصه متكئاً على إرث الأنفة الجاهلية بوصفها حائط صد سيكولوجي ومقاومة معنوية في مواجهة ثنائية القيد والانكسار، وفي خضم هذا السياق المأساوي تبرز الوظيفة الاستراتيجية لآلية "الاستذكار"؛ حيث يتخذ الشاعر من طيف المرأة "الكلبية" مرتكزاً وجدانياً وملاذاً عاطفياً يبث من خلاله لواعجه ومعاناته لتكتمل بذلك دائرة الفجيعة؛ إذ يتضافر الاغتراب المكاني مع الأسر الجسدي ليشكلا قيداً مزدوجاً يُحيل الذات إلى كيان مسلوب الإرادة، يقف مذهولاً ومسدود المنافذ أمام طريق الخلاص حيث ان "الانسان الجاهلي مواطن قبلي يربط دائماً بين الأرض والاهل اذ لا قيمة لديه لأرض دون ساكنيها "(الخشروم،١٩٨٢م، ص٣٨) وخلاصة القول ان النص يمثل صلابة نفسية في مواجهة الانهيار فالشاعر لا يخشى الموت ، بل يخشى الهوان الاجتماعي لا سرته بعده فكانه يمارس نبل أخلاقي وطريق للسير بالحياة من دونه.

وفي موضع اخر من بلاد العجم حارب حسان مع كسرى أبرويز في أذربيجان والمدائن ضد بهرام جور، واثناء إحدى المعارك سقط كسرى عن فرسه " شبداز" فخاف الطلبَ، فطلب من النعمان بن المنذر فرسه فأبى النعمان، فنزل حسان عن فرسه الضبيب وأركب كسرى مكانه فنجا، فقال الحسان حنظلة(الطميزي ، ٢٠١٠ م ، ص٤٤٠ _٤٤١):

تلافيت كسرى أن يضام و لم أكن ... لأتركه في الخيل يعثر راجلا
بذلت له صدر الضبيب و قد بدت ... مسومة من خيل ترك و كابلا

تحتل الخيل مكانةً مركزيةً في بنية الوجدان العربي القديم، حيث تتجاوز وظيفتها النفعية المحضة بوصفها أداةً عسكرية للكر والفر، لتغدو رمزاً مجازياً يُجسّد قيم الكبرياء، والعزة،

والشموخ. فهي تمثل شريكاً وجودياً للذات الإنسانية وحارساً للأمجاد، تسهم بفاعلية في صياغة الملاحم البطولية وتدوين الانتصارات التاريخية، وفي سياق المعارك الحربية، تتجلى حالة من التماهي العضوي والروحي بين الفارس وفرسه، لتشكل معه وحدةً لا تتجزأ، تنهض بأدوار الحماية، والمؤازرة، والوسيلة الفاعلة.

وتأسيساً على ما سبق، تُجسّد الأبيات السابقة أسمى مراتب المنظومة القيمية للفروسية، لاسيما في سياق تجربة الغربة؛ إذ تتسع دلالاتها لتشمل مفاهيم النبل، والوفاء، والتضحية المطلقة. وقد تجلى ذلك بوضوح في قدرة الشاعر على إحداث اندماج نفسي بين ذاته وفرسه "الضبيب"، جاعلاً إياه امتداداً لكيانه، وهو ما يبرهن على أصالة تجربته، وعمق انتمائه، وكمال وعيه الفروسي " كيف يشاء صرفه وإنقاد لهُ "(القزويني ،٢٠٠٠م، ص٣٠٣) فكان الشاعر يمثل الفارس المثالي الذي دمج بين البراعة القتالية والبعد الأخلاقي والسياسي فالفروسية ليست مجرد مهارة الطعن بل التزام رفيع المستوى فادرك ان حماية الحليف "كسرى أبرويز" هي فرض لا يتجزأ من القيم ، فانعكست البيئة العربية المكونة للشخصية على البيئة المغترب بها " فالبيئة ذات اثر كبير في تكوين ، وقوته أو ضعفه ، كما لها مساس ملحوظ بأخلاق الشعوب ، وعاداتهم(القيسي، ١٩٦٤م، ص٤٥) وتأسيساً على ما تقدم، يتجلى أن استحضار الشاعر للنسق القيمي للفروسية في هذا السياق التعبيري لم يكن عفوياً، بل يمثل استراتيجية دفاعية واعية تهدف إلى مقاومة الاستلاب الثقافي ورفض الانصهار أو التماهي مع فضاء الاغتراب.

فالفروسية، من هذا المنظور، تتجاوز كونها مجرد صفة لتصبح منظومة أخلاقية وسلوكية حاكمة يمتثل لها الشاعر بصرامة ويتخذ منها أداة لإثبات الذات. إن هذا الامتثال الدقيق لتلك المنظومة في النص يجسد مسعاه الحثيث لتأكيد استمرارية هويته –امام ذاته والآخرين –بوصفه (الفارس الجاهلي) الأصيل، الذي يظل عصياً على التبدل، وثابتاً في وجه التغريبة، فلا تزعزعه وطأة الاغتراب الثقافي ولا تطمس معالم هويته الإقامة في بلاد العجم.

يقول خويلد بن وائلة بن مطمل وهو عند ملك الحبشة، يعرض اللائمين ويفتخر بذهابه إلى الحبشة لتحرير أسرى العرب (الطميزي،٢٠١٠ م، ص ٤٤٥):

الا من حوال الدهر أصبحت جالسا	**أسام النكاح فـي خزانة مرثد**
إلى معشـــر لا يَختنوْنَ نســاءهم	**وأكلُ الجراد فيهـــم غيرُ أَقْنُدِ**
فقلت هـــم قـــوم بأعناء نخـــلة	**واحوالها فيهم قراري ومولدي**

يُجسد الشاعر مكابدته مع الاغتراب المكاني والروحي الذي يطوقه ويحاصره من الجهات كافة. وتبرز في هذا السياق التعبيري إشكاليات محورية تتجلى في التباين الثقافي والاجتماعي، فضلاً عن أزمة الانتماء الجغرافي؛ إذ يعمد الشاعر إلى استحضار مقارنة ذهنية تقابليه بين المشهد الغريب في بلاط ملك الحبشة، وبين فضاء البادية الأصيل حيث جذوره وقومه ، وتتشكل هذه المقاربة في قالب من الشكوى المفعمة بالألم، لتغدو وثيقة وجدانية وخريطة ترصد أبعاد معاناته النفسية وتصل ذروة هذا الصراع الخاص بالهوية من خلال رصد الشاعر للتفاوت العميق في المنظومة العرفية والأنماط المعيشية بين بيئته العربية وبيئة الآخر الغريب، فقد اتخذ من الإشارة إلى بعض الممارسات والتقاليد المغايرة في أرض العجم – كظاهرتي (ختان النساء) و (أكل الجراد) –شواهد سوسيولوجية تبرز حجم الهوة الثقافية، وتؤكد إحساسه الحاد بالعزلة الحضارية، ورفضه للذوبان في هذا الفضاء المغترب " فالختان علامة ميزة وافتخار عند بعض الشعوب "(أبو ساحلية ، ٢٠١٢م) فهي فالنص ليست مجرد وصف ، بل هي علامة ثقافية فارقة في العرف ما قبل الإسلام ، مما عمق هذا الشعور بالاستلاب والوقوف خارج حدود بيئته ، فنلاحظ الشكوى من الغربة الطبقية والجسدية والزمنية . ويقول ايضاً عند ملك الحبشة في شأن اسرى العرب (الطميزي ، ٢٠١٠ م، ص٤٤٦) و(وينظر السكري،١٩٦٥م، ص٣٨٩):

إِمَّا صَرَمْتِ جَـدِيدَ الحَـبا ... لِ مِنَّا وَغَيـرْكَ الأَشَـبُ
وَقَـوْلُ الْعداةِ وَأَيُّ امْـرِئٍ ... مِنَ النَّاسِ لَيْسَ لَـهُ عائِبُ
فَيا رُبَّ حَيـرَى جَمادِيَّـةٍ ... تَنَزَّلَ فِيـهَا نَدَى سَـاكِب
ملكت سُـرَاهَا إِلَى صُبْحِهَا ... بِشَـعث كَأَنَّهُمْ حاصـب
لَهُمْ عَـدْوَةٌ كَانْقِصَافِ الأَتى ... مَـدْ بِهِ الكَـدرُ الـلأحبُ
وَسُـودٍ جَعَادٍ غِلاظُ الرِّقَابِ ... مِثْلَـهُمْ يَـرْهَبُ الرَّاهـبُ
أَشَـابَ الرؤوسَ تُقَدِّيـهِمُ ... فَكُلُّـهُـمْ رَامِـحُ نَاشِـبُ
أَتَيْـتُ بِأَبْنَائِـكُمْ مِنْـهُم ... وَلَيْسَ مَعي مِنْكُمْ صَـاحِبُ
تَـرُوحُ عِشَارِي عَلَى ضَيْفِكُمْ ... وَلِلْجَـارِ إِذْ أَفْزَعَ العَازِبُ
فَذَلِكُمْ كَـانَ سَـعْيي لَكُـمْ ... وَكُـلُّ أُنَاسٍ لَهُمْ كَاسِـبُ
فَأَبْلِـغْ كُلَيـبًا وَإِخْـوَانَهُ ... رَسُـولاً فَإِنِّي أَمْرُؤٌ عَائِب
عَذِيـرَ ابْنِ حَيَّـةَ إِذْ جَاءَنِـي ... لِيَقْتُلَنِي، عَـجَبٌ عَـاجِبُ
وَشَـرُّ الثَّوَابِ إِذَا مَا اسْتَثيبَ ... يُعْلَى بِهِ الـذَّكَرُ القَاضـبُ
كَمَا الْعَبْدُ يُطْلَبُ فِيـهِ النَّـجا ... حُ وَالعبدُ فِـي رَده رَاغِـبُ

وَإِنِّـــي كَمَا قَـــالَ مُملي الكتا ب فِي الرَّقِ إِذْ خَطَهُ الكاتب

يَرَى الشاهِدُ الحَاضِرُ الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا يَرَى الْغَائِبُ

تعد هذه الأبيات وثيقة أدبية ونفسية بالغة الأهمية في المدونة الشعرية الجاهلية؛ إذ ترصد تجربة الاغتراب المكاني والروحي في "أرض العجم" (الحبشة) فانطلق الشاعر في رحلة محفوفة بالمخاطر لافتداء أسرى قبيلته (هذيل) لتتأسس بنية النص على ثنائية ضدية حادة طرفاها التضحية المطلقة في مواجهة الخذلان والجحود وبذلك، يُحيل الشاعر قصيدته إلى محاكمة أخلاقية علنية، كاشفاً عن مفارقة مأساوية مريرة؛ فالفارس النبيل الذي اقتحم غياهب المجهول لإنقاذ أبناء جلدته، يجد نفسه فجأة هدفاً لعدائهم ومكائدهم.

جعل من الليل بوصفه معادلاً موضوعياً للغربة والمكابدة ففي سياق تصوير المعاناة، يتخذ الشاعر من "الليل" فضاء دلالياً لنقل مشاعر الغربة والألم المبرح وتتجلى براعته في تصوير رحلته الممتدة من غسق الليل حتى انبلاج الفجر، مستنداً إلى الفعل (مَلَكتُ) في قوله: "ملكت سراها إلى صبحها"، فهذا التوظيف اللغوي لا يعكس الخضوع لرهبة الظلام، بل يُبرز قوة الإرادة والسيطرة المطلقة للفارس على مخاوفه، وتتعمق قتامة هذا المشهد بوصفه ليلة الرحلة بـ (حيرى جمادية)، في إحالة إلى ليالي شهر جمادى التي ترمز في المخيلة العربية الجاهلية إلى ذروة الزمهرير والوحشة، مما يمنح النص أبعاداً نفسية عميقة تنقل للمتلقي فداحة المعاناة وقسوتها.

من جهة أخرى، يوظف الشاعر الوصف الظاهري والحسي لملامح سكان أرض العجم لتعزيز الإحساس بالخطر والرعب؛ فالإشارة إلى ملامحهم في قوله: "سود جعادٌ غلاظٌ الرقاب"، وتشبيههم بـ (شعث كأنهم حاصب)، تهدف إلى إبراز التباين العرقي والشكلي العميق الذي يعزز شعوره بالانسلاخ والعزلة وفي المحصلة، تضافرت عوامل الضغط النفسي، المتمثلة في قسوة البيئة المغايرة، وثقل المسؤولية الفردية، ومرارة الجحود القبلي، لتغدو حافزاً جوهرياً للإبداع الشعري وتفجر طاقاته الكامنة وهو ما يؤكد " ان انتفاء الشاعر عن وطنه يخلق منه حمامة مسجعة وان عودته اليه تجعل منه عندليباً مغرداً فهذا هو تأثير البعد عن الوطن على الذات الشاعرة "(البياتي،١٩٨٦م، ص٣٥)

اعتنق عثمان بن الحويرث النصرانية ولحق بقيصر، وأخذ يرغبهُ بقريش لتكون مثل ملك كسرى في اليمن، غير ان قريش كرهت ذلك وسعت بواسطة الغساسنة إلى افساد امر عثمان عند القيصر، وقال عثمان اثناء هذه الحادثة اشعار في ارض الروم (الطميزي،٢٠١٠ م

،ص٤٥٠)و(وينظر البغدادي ، محمد بن حبيب ، المنمق في اخبار قريش ، ت: خورشيد احمد فاروق ، عالم الكتب ، ط١ ، ١٩٨٥ ،ص١٥٤):

فلما دنـــونا مـــن مـــدينة قيـــصر	**احســت نفوس القوم لي بالوساوسِ**
الا طـــرقتنـــا زينـــب ابنـــة خيـــرنـــا	**لذي حُمْرِ غُصنٍ من رطيب ويابسِ**
وليـــــس بها اهـــلُ الصيانة والصبى	**ولكن بها شَـــمَّاســـةٌ النَّوَاقِـــسِ**
سَرَتْ مـــنْ جفان الغور حتى اهتدتْ بنا	**ونحْنُ نشأْرِيْ في أُصـــوْل الكنائسِ**

عمد الشاعر إلى توظيف أسلوب المقابلة (التضاد) ليُبرز من خلاله مشاعر الغربة النفسية ولواعج الاشتياق؛ إذ عقد مفارقة لغوية دلالية بين عالمين متناقضين. فصوّر عالم الوطن بوصفه فضاء للحياة اللاهية والمفعمة بالسعادة، وتجلى ذلك في استدعاء مفردات تعكس الألفة والذكريات مثل: (جفان الغور، الصبا، زينب).

في المقابل، جسد عالم الغربة واقعاً صارماً وموحشاً، وعبّر عنه بمعجم ديني ومكاني مغاير مثل: (مدينة قيصر، الكنائس، الشَّمَّاسَة، النَّواقِس) ، وقد أسهم هذا التضاد الحاد في تعميق إحساس المتلقي بمدى عزلة الشاعر وفداحة معاناته الروحية.

وعلاوة على ذلك، استعان الشاعر بالصور الفنية –البصرية والسمعية –ليُضفي على نصه أبعاداً تجسد الشوق والحاجة الملحة للارتباط بجذوره فتمثلت الصورة البصرية في ملامح المكان الغريب (أصول الكنائس، مدينة قيصر)، بينما تجلت الصورة السمعية في رنين (النواقس) الذي يقرع في منفاه، ومن خلال هذه البنية الفنية، يتضح بجلاء أن الصراع الذي يخوضه الشاعر ليس صراعاً جسدياً أو مادياً، بل هو صراع نفسي بامتياز يعكس أزمة الهوية في فضاء الاغتراب.

كان الضيزن بن معاوية القفاعي ملكاً بين دجلة والفرات، ويذكر انه اغار على مدينة سابور ذي الاكتاف، فأخذها وأخذ اخت سابور، وقتل من الفرس خلقاً كثيراً، فقال عمرو بن سليح واصفاً هذه المعركة (الطميزي ، ٢٠١٠ م ،ص٤٥٣_٤٥٤):

كَأَنَّ الدَّهْرَ جُمِعَ فِـــي لَيَالٍ	**ثَلَاثٍ بِتهُنَّ بِشَـــهْرَزُورِ**
صَفَفْنَا لِلأَعَاجِمِ مِـــنْ مَعَدٍ	**صُفُوفاً بِالْجَزِيرَةِ كَالسَّعِيرِ**
لَقِيْنَاهُمْ بِجَمْعٍ مِنْ عِـــلَافٍ	**وَبِالْخَيْلِ الصَّلَادِمَةِ الذُّكُورِ**
فَلَاقَـــتْ فَـــارِسٌ مِنَّا نَكَـــالاً	**وَقَتَلْنَا هَرَابِذَ شَـــهْرَزُور**
دَلَفْنَا لِلأَعَـــــاجِمِ مِنْ بَعِيدٍ	**بِجَمْعٍ مِ التِهَابِ كَالسَّعِيرِ**

تمثل الابيات المواجهة والصراع بين عقيدتين ؛ "معد" التي تمثل التحالف القبلي المهاجم ، و"فارس" التي تمثل الإمبراطورية في حالة الدفاع ، يسجل النص لحظة مهمة وفاصلة في مواجهة الاعجمي على ارضهِ ، وتعد وثيقة شعرية وتاريخية لتجسيد الملحمة الحربية التي حدثت آنذاك فكان اختياره للألفاظ يناسب الواقعة فمزج بين الألفاظ العجمية والتوثيقية مثل قوله ، شهرزور، اعاجم ،هرابد) فأظهرت للمتلقي ابعاد عديدة واهمها البعد التوثيقي والمكان من خلال (شهرزور) فوثق التاريخ والجغرافيا من خلال النص وسجل يوميات حربية قاسية فقد "سعى الشاعر الجاهلي إلى معالجة علاقاته مع الوجود والحياة والموت والزمان والمكان ، وعبر عن هذه الأشياء تعبيراً قدم من خلاله رؤيته الكونية الشمولية ، ولم يكن تعبيره عن هذه الرؤى الكونية بأسلوب عادي .. وانما جاء أسلوبه أسلوباً فيه شعرية عميقة "(ربابعة ، ٢٠١١م ، ص١١٣)

وتجسد البعد الثقافي من خلال لفظة (الهرابد) مما اضفى بعداً دينياً حيث جعل من قتلهم واقصاهم رمزاً لانكسار الروح المعنوية للآخر وهذا يؤكد " ان الشاعر يستمد مادته الفنية وصوره الشعرية من خلال ثقافة التفاعل مع مجتمعه (عليمات، ٢٠٠٤ م، ص٤١)

وأقصى درجات الغربة تظهر في قول الشاعرة ليلى العفيفة عندما تقول (الطميزي،٢٠١٠م، ص ٢١١):

ما حـــالُ براق مِـن بَعدي وَمَعشَـــرِنا ... وَوالِدَيَّ وَأَعمامـــــي وَإِخْوانِـــي

قد حـــال دونـــــي يا بَرّاقُ مُجْتَهِداً ... مِنَ النَّوَائِبِ جُهْدٌ لَيْسَ بِالفانـــي

كَيفَ الدخولُ وَكَيفَ الوَصْلُ وا أَسَـــفاْ ... هيهات ما خِلْتُ هَذَا وَقْتَ إِمْكَانِ

لَمَّا ذَكَرْتُ غَـــرِيباً زادَ بِـــي كَمَدي ... حَتّى هَمَمْتُ مِـنَ الْبَلْوَى بِإِعْلَانِ

تتخذ القصيدة من "الغربة" بؤرة دلالية مركزية تتمحور حولها الأبيات، لتؤسس عبرها بنية عميقة قائمة على ثنائية (الحضور والغياب)، بوصفها المحرك الأساسي للتعبير عن ماسي الذات المكلومة من خلال استنهاض الهوية وتعميق الوحشة فقد استهلت الشاعرة نصها بتساؤل استنكاري: (ما حال براق؟) ولم تكتف بهذا التساؤل، بل تجاوزته إلى استدعاء العصبية القبلية واستنهاض النخوة عبر توظيف لفظة "معشرنا"، وعمدت بعد ذلك إلى تفصيل هذا الانتماء وتخصيصه بذكر: "والدي، وأعمامي، وإخوتي". يهدف هذا التدرج إلى إبراز فداحة الغربة بشقيها الجغرافي والاجتماعي؛ فالافتقاد الحاد للمنظومة الأسرية والمجتمعية بأسرها مما أسهم في تعميق الإحساس بالوحشة المكانية، وشكل محاولة واعية لاستنهاض الهوية العربية في بيئة الاغتراب

وفي سياق البحث عن طوق النجاة في بلاد فارس (أرض العجم)، تعمد الشاعرة إلى تكرار نداء "براق" على مرتين، لتؤسس من خلاله رمزياً الصورة "المنقذ" الذي ترتكز عليه أمالها في الخلاص، وقد تعاضدت مشاعر الحيرة المتراكمة والأسى العميق في تساؤلاتها ونداءاتها المتعاقبة: "كيف الدخول؟، وكيف الوصل؟، وواأسفاً!"، لتشكل مرآة وجدانية تعكس بوضوح حجم الاضطراب النفسي والصراع الداخلي العنيف الذي كابدته الشاعرة، والذي ترجم ببراعة في النسيج الفني للنص. "حيث يزداد احساس الشاعر الجاهلي بالغربة، حين يكون في غير قومه وموطنهم"(الخشروم، ١٩٨٢م،ص:٤٦)

وفي موضع آخر "تعرض الشاعرة لحالتها النفسية وخصوصاً عندما تُشاهد مُغترباً فيزدادُ همّها فتخرج عن صمتها ، و تُجاهر ببلوتها بعد أن كتمت شوقها الذي انحلها و اضعفها فعظم الشوق و مرارة الاغتراب يدفعان الشاعرة إلى هذا الحنين الباكي ، و ربَّما لو كانت الشاعرة مغتربة في أرض عربية لكانت فاجعتها أمل ، غير انّها تقيم في ديار الفرس حيث اختلاف الثقافة و الحضارة و العادات و التقاليد من هنا تتعاظم مصيبتها و يزداد حنينها ، وهي تجسد حال المرأة العربية الجاهلية التي فقدت وطنها ، كما ان سبي النساء شديد الوقع على أفراد القبيلة فما بالك ان كان السبي من قبل أمةٍ اعجمية كالفرس ، فتول ليلى العفيفة"(الطميزي،٢٠١٠م ، ص : ٢٢٢):

لا دَرَّ دَرُّ كُلَـــيْبٍ يَـــــوْمَ رَاحَ وَلاَ	أَبِـــي لِكَيْزٍ وَلَا خَيْلِـــي وَفُرْســـــانِي
عَـــنِ ابْنِ رُوحَانَ رَاحَتْ وَائِلٌ كُئِباً	عَـــنْ حَامِلٍ كُـــلِّ أَثْـــقَالٍ وَأَوْزَانِ
وَقَـــــدْ تَزَاوَرَ عَـــنْ عِلْمٍ كُلَيْبُهُمُ	وَقَدْ كَبَا الزَّنْدُ مِـــنْ زَيْدِ بْنِ رُوحَانِ
وَأَسْـــلَمُوا الْمَالَ وَالْأَهْلِينَ وَاغْتَنَمُوا	أَرْوَاحَهُمْ فَوْقَ قُبٍّ شَـــخْصَ أَعْيَانِ
حَتَّـــى تَلاقَاهُمُ الْبَرَّاقُ سَـــــيِّدُهُمْ	أَخُو السَّرَايَا وَكَشْـفِ الْقَسْطَلِ الْبَانِي
يَا عَيْنِ فَابْكِي وَجُودِي بِالدُّمُوعِ ولا	تَمَلِّ يَا قَلْبُ أَنْ تَبْلَى بِأَشْـــــــجَانِ

تشكل الثنائيات المتقابلة إحدى أبرز الاستراتيجيات النصية التي وظفتها الشاعرة لتفجير الشحنة المأساوية، والكشف عن فداحة الانكسار على المستويين النفسي والاجتماعي. فقد استثمرت هذه الآلية بوعي حاد لإبراز التناقض الصارخ بين المثال الجاهلي (لمنظومة الفروسية)، وبين (الواقع المأساوي) الذي تجسد في الخذلان والهزيمة.

فجاءت مفارقة النجاة والهزيمة حيث تتجلى ذروة هذا التضاد في المقابلة الدلالية العميقة بين فعلي (أسلموا) و (اغتنموا)؛ إذ صاغت الشاعرة من خلالهما مفارقة لاذعة تقلب موازين النسق

القيمي للفروسية الجاهلية، فالفارس العربي في العرف الأصيل، يُفترض أن يبذل روحه في ساحة الوغى دوداً عن الشرف والمجد، غير أن الشاعرة تعري تخاذل قومها الذين (أسلموا) للعدو أنفس ما يملكون من الأهل والمال والعرض، وفي المقابل (اغتنموا) النجاة بأرواحهم المنهزمة والمجردة من معاني الفروسية الحقة.

وتمتد هذه البنية الضدية لتشمل المقابلة بين التخاذل الجماعي للقبيلة، والذي عبرت عنه بتراكيب توحي بالانسحاب والتخلي مثل: (راحت كتباً، وتزاور عن علم، أسلموا الأهلين)، وبين الفروسية الفردية الأصيلة التي تجسدت في استدعاء شخصية (براق) فقد أسبغت عليه صفات بطولية تفضح تخاذل الجماعة وتناقض صورتهم، فألقت عليه بصفات القيادة والإقدام:(سيدهم، أخو السرايا، كشاف القسطل الباني).

فلقد برعت الشاعرة عبر استثمار هذه البنية الضدية في تشخيص حجم الشرخ الممتد في الذات؛ لتتجاوز بالقصيدة حدود التوثيق أو السرد المباشر لحدث حربي، محيلة إياها إلى وثيقة إدانة ومحاكمة نقدية قاسية تعري انهيار العصبية القبلية، وسقوط مروءة الفرسان أمام الآخر (العجم).

الخاتمة:

تبرز هذه الدراسة أبعاد التجربة الاغترابية في الشعر الجاهلي داخل أرض العجم"، ويمكن استنتاج التالي

- هيمنة الاغتراب الوجودي لم يكن الارتحال الجغرافي للشعراء الجاهليين مجرد انتقال مادي عابر، بل شكل اغتراباً وجودياً عميقاً ضرب صميم الكينونة الإنسانية والهوية العربية.
- جاء الشعر كأداة دفاعية تحولت النصوص الشعرية في المهجر إلى وثائق تاريخية وثقافية، ووظفت كأدوات دفاعية لاستنهاض الهوية وإثبات الذات، ورفض الذوبان المطلق في الفضاء الأعجمي الآخر.
- صراع القيم والمفارقات كشفت آليات التحليل النصي ولا سيما عبر توظيف الثنائيات المتقابلة عن عمق الصراع النفسي بين المنظومة القيمية المثالية للفروسية الجاهلية، وبين واقع الانكسار، والخذلان، وفجيعة الموت في المنفى.
- كان الاستلاب كمحفز للإبداع أثبتت الدراسة أن قسوة الاستلاب المكاني والثقافي لم تطمس الصوت الشعري، بل شكلت حافزاً جوهرياً لتفجير الطاقات الإبداعية والشحنات المأساوية في القصيدة الجاهلية.

المصادر

- أبو ساحلية ، سامي عوضي الذيب ، **ختان الذكور والاناث عند اليهود والمسيحين والمسلمين (الجدل الديني والطبي والاجتماعي و القانوني _ دراسة ووثائق _)** ، مركز القانون العربي والإسلامي ، ٢٠١٢م
- احمد، الفاتح صديق عبد الفراج ، **الوقوف والبكاء على الاطلال في المعلقات الجاهلية** ، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعة ،الجزائر، ٢٠٢٣م
- اسليم، فاروق احمد ، **الانتماء في الشعر الجاهلي** ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ،١٩٩٨م
- الاصفهاني ، ابي فرج علي بن الحسين ، **الأغاني** ، ت٣٥٦هـ ، تحقيق : احسان عباس وآخرون ، دار صادر ، بيروت ، ط ٣ ،٢٠٠٨م .
- بركات، حليم، الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الانسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ٢٠٠٦م
- البغدادي ، الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، **معجم البلدان** ، دار صادر ، بيروت ،١٩٧٧م .
- البغدادي ، محمد بن حبيب ، **المنمق في اخبار قريش** ، ت: خورشيد احمد فاروق ، عالم الكتب ، ط١ ، ١٩٨٥م
- البياتي، د. عادل جاسم، **دراسات في الادب الجاهلي (مباحث تراثية ونصوص دينية)** ، الدار البيضاء ، ١٩٨٦م، ج٢، ص٣٥
- تريكي ،مبارك ، **النداء بين النحويين والبلاغيين** ، مجلة حوليات التراث ،عدد (٧) ، ٢٠٠٧م .
- الحشروم، عبد الرزاق ، **الغربة في الشعر الجاهلي** (دراسة) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٨٢م
- ربابعة ، د. موسى ،**تشكيل الخطاب الشعري (دراسات في الشعر الجاهلي)** ، دار جرير ، عمان ،ط١، ٢٠١١م
- السكري ، ابي سعيد الحسن بن الحسين ، **شرح اشعار الهذليين** ، تحقيق : عبد الستار احمد فراج ، مطبعة المدني ، ١٩٦٥م.
- الطبري ، ابي جعفر محمد بن جرير ، **تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ،١٩٦٨ م ،ط٢ .
- الطميزي ، الطالب : ناصر بن احمد ،**الشعر في ارض العجم** ، (جمع وتوثيق ودراسة) ، رسالة ماجستير ، جامعة الخليل ، بإشراف : عبد المنعم حافظ الرجبي ، ٢٠١٠ م .
- عليمات د. يوسف ، **جماليات التحليل الثقافي (الشعر الجاهلي نموذجاً)** دار الفارس ، اردن ، ط١، ٢٠٠٤م

•العيفاوي ، بخته ، و ريم منصوري، ثنائية الغربة والاغتراب في رواية كريسماس في مكة لـ " احمد خيري العميري ، رسالة ماجستير بأشراف الأستاذة : مليكة عزيزي ، الجزائر ، ٢٠٠١م

•القزويني ،الامام محمد بن محمد بن محمود الكوفي ، **عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات**،مؤسسة الأعلى ،لبنان ، ط١ ،٢٠٠٠م.

•القيسي، نوري حمودي ، **الفروسية في الشعر الجاهلي** ، دار التضامن ، بغداد ،ط١، ١٩٦٤ م

•ناوري ، يوسف ، **جمالية اشتغال النص الشعري المعاصر** ، بحث منشور في مجلة علامات في النقد الادبي ، السعودي ، مجلد ١٥ ،ج٥٩، ٢٠٠٦م.

•اليسوعي ، لويس شيخو ،كتاب شعراء النصرانية ،مطبعة الإباء ،بيروت،١٨٩٠م

Sources

•Abu Sahliya, Sami Awadi Al-Dheeb, Male and Female Circumcision among Jews, Christians, and Muslims (Religious, Medical, Social, and Legal Debate - A Study and Documents), Center for Arab and Islamic Law, 2012

•Ahmed, Al-Fatih Siddiq Abdul-Faraj, Standing and Weeping over the Ruins in the Pre-Islamic Odes, Journal of Humanities and Natural Sciences, Algeria, 2023

•Aslim, Farouk Ahmed, Belonging in Pre-Islamic Poetry, Arab Writers Union Publications, 1998

•Al-Isfahani, Abu Faraj Ali ibn Al-Husayn, Al-Aghani (The Book of Songs), d. 356 AH, edited by Ihsan Abbas et al., Dar Sader, Beirut, 3rd edition, 2008. • Barakat, Halim, Alienation in Arab Culture: The Labyrinth of Man Between Dream and Reality, Center for Arab Unity Studies, Lebanon, 2006.

•Al-Baghdadi, Imam Shihab al-Din Abu Abdullah Yaqut ibn Abdullah al-Hamawi al-Rumi, Dictionary of Countries, Dar Sader, Beirut, 1977.

•Al-Baghdadi, Muhammad ibn Habib, The Embellished in the History of Quraysh, ed. Khurshid Ahmad Farouk, Alam al-Kutub, 1st ed., 1985.

•Al-Bayati, Dr. Adel Jassim, Studies in Pre-Islamic Literature (Heritage Studies and Religious Texts), Casablanca, 1986, vol. 2, p. 35.

•Turki, Mubarak, The Vocative Between Grammarians and Rhetoricians, Annals of Heritage Journal, no. (7), 2007.

•Al-Hashroum, Abdul Razzaq, Alienation in Pre-Islamic Poetry (A Study), Arab Writers Union Publications, Damascus, 1982.

•Rababa'a, Dr. Musa, The Formation of Poetic Discourse (Studies in Pre-Islamic Poetry), Dar Jarir, Amman, 1st edition, 2011.

•Al-Sukkari, Abu Sa'id al-Hasan ibn al-Husayn, Commentary on the Poetry of the Hudhayl Tribe, edited by Abd al-Sattar Ahmad Faraj, Al-Madani Press, 1965.

•Al-Tabari, Abu Ja'far Muhammad ibn Jarir, The History of al-Tabari (History of the Prophets and Kings), edited by Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, Dar al-Ma'arif, Egypt, 1968, 2nd edition.

•Al-Tumayzi, student: Nasir ibn Ahmad, Poetry in the Land of the Persians (Collection, Documentation, and Study), Master's Thesis, Hebron University, supervised by Abd al-Mun'im Hafiz al-Rajabi, 2010.
•Alimat, Dr. Youssef, The Aesthetics of Cultural Analysis (Pre-Islamic Poetry as a Model), Dar Al-Fares, Jordan, 1st edition, 2004.
•Al-Aifawi, Bakhta, and Reem Mansouri, The Duality of Alienation and Estrangement in the Novel "Christmas in Mecca" by Ahmed Khairy Al-Amiri, Master's Thesis supervised by Professor Malika Azizi, Algeria, 2001.
•Al-Qazwini, Imam Muhammad ibn Muhammad ibn Mahmud Al-Kufi, The Wonders of Creatures, Animals, and Oddities of Existence, Al-A'la Foundation, Lebanon, 1st edition, 2000.
•Al-Qaisi, Nouri Hammoudi, Chivalry in Pre-Islamic Poetry, Dar Al-Tadhamun, Baghdad, 1st edition, 1964.
•Nawari, Youssef, The Aesthetics of Contemporary Poetic Text Function, a study published in the journal "Signs in Literary Criticism," Saudi, Volume 15, Issue 59, 2006.
•Al-Yasu'i, Louis Cheikho, The Book of Christian Poets, Al-Ibaa Press, Beirut, 1890.